مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد 19، العدد 73 (شتاء 2008)، ص 157

قراءة خاصة

حنا أبو حنا*

الكلية العربية في القدس: تاريخ وذكريات

محمد يوسف نجم (إعداد وتحرير)، "دار المعلمين والكلية العربية في بيت المقدس". بيروت: دار صادر، 2007. 494 صفحة.

يقول الدكتور نقولا زيادة: "إن الدور الذي قامت به الكلية العربية من حيث تعليم وتثقيف عدد كبير من خيرة الشباب الفلسطيني كبير. وليس هنا موضع التحدث عنه، إذ إن هذا سيتم عندما يصدر الكتاب الذي سيؤلَّف عن هذه المؤسسة" (ص 146). وقد صدر هذا الكتاب بعد عام من وفاة الدكتور زيادة الذي لم يهمَل عاماً واحداً آخر لنحتفل بالعيدين: ميلاده المئوي وصدور الكتاب.

تضافرت جهود جادة ومثابرة حتى خرج الكتاب إلى النور، فقد "تفضل المعلم حسيب جريس الصباغ بتمويل إعداد الكتاب، وتفضل المعلم سعيد توفيق الخوري بتمويل نشره"، أمّا العبء الكبير فكان من نصيب الدكتور محمد يوسف نجم. فالنكبة التي عصفت بالشعب الفلسطيني، ومزقت وطنه وشردته ليبني غاصبون كياناً على أنقاضه، أصابت الكلية العربية في الصميم، إذ اغتُصبت الأرض والمباني، وعبثت أياد أثيمة بالوثائق والمكتبة، وانتشر الخريجون في أنحاء العالم، فكانت مهمة الوصول إلى الوثائق ومتابعة مسيرة العديدين منهم، والوصول إلى حيث نأى بهم المصير، أمراً عسيراً. لكن الجهد الحافل بصدق النية، والتحدي المؤمن بالرسالة، أثمرا ثمراً طيباً.

يبهرنا الكتاب بإخراجه، وينجلي السر حين نقرأ عن خبرة الدكتور نجم بالنشر والطباعة (ص 441). وقد قسم الكتاب إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: دار المعلمين (1918 – 1927)، وفيه ذكريات وبحث للدكتور نقولا زيادة الذي التحق بالدار سنة 1921، ودرس فيها ثلاثة أعوام. وإن القارئ ليغبط ذاكرة المؤرخ الذي لا يكتفي بسرد أسماء الطلاب وبلداتهم من أبناء صفه خريجي العام الدراسي 1924، وسابقيه خريجي العامين الدراسيين 1922 و1923، بل إنه يستفيض أيضاً في إيراد ملاحظات قيّمة تشرح جوانب مهمة من الصورة وتضيء أبعادها. وفي بند آخر يحدثنا عن المدرسين الذين علّموا في الدار حين كان خليل طوطح مديرها، فيذكرهم واحداً واحداً محيطاً بمؤهلاتهم، وساردا طرائف ووقائع تنبض بالحيوية، الأمر الذي يجعل متعة القارئ تقترن بما يفيد الباحث. فهناك مثلاً، تفصيل عن مواد الدراسة وعن المعلمين، كما توجد إشارات إلى بعض النشاطات الثقافية التي أتيح للطلاب المشاركة فيها أو الاتصال بها، مثل الفرقة التي "كانت تمثل مسرحية من مسرحيات شكسبير مرة في السنة" (ص 41)، أو المحاضرات التي كانت تقام في "جمعية الشبان المسيحية"، أو الأناشيد التي تعلموها والتي كان معروف الرصافي وضعها حين علّم في الدار وصدرت في كتيّب صغير عنوانه "الأناشيد المدرسية"، أو الرحلات التي كان المدير خليل طوطح ينظمها.

يلي ذلك فصل عن تاريخ دار المعلمين بقلم الأستاذ محمود سليمان العابدي، ويتألف من قسمين: الأول تقرير عن تأسيس دار المعلمين قبل أن يلتحق بها في سنة 1923، والثاني تجربته عندما كان طالباً فيها خلال الفترة 1923 – 1927. وفي هذه المذكرات أضواء على الحياة اليومية والنشاط الرياضي والرحلات والكشافة والمكتبة. ولا ننسى أن الدكتور زيادة والأستاذ العابدي كانا مؤرخين، ولذلك نجد همّ المؤرخ فيما يكتبان.

يتبع ذلك تعريف بمديري دار المعلمين وبالمدرسين، وجداول بأسماء الخريجين وبلداتهم بدءاً بسنة 1920 وانتهاء بسنة 1927 التي شهدت افتتاحاً للعهد الجديد الذي تحولت فيه الدار إلى "الكلية العربية". وترتسم في هذه

الجداول خريطة النكبة من خلال ذكر أسماء المدن والقرى التي اغتصبت وشُرّد أهلها، ومنها: اللد والرملة ويافا وطبرية وصفد وبئر السبع وقيسارية وبيسان والمزيرعة وغيرها. كما نجد بدايات التحاق طلاب من الأردن بالدار، فقد جاء في باب "معلومات مستمدة من التقرير السنوي 1926 – 1927" أنه التحق بـ "الصف الأول طالب واحد (فضلاً عن طالبين أرسلتهما حكومة شرقي الأردن هما الأمير نايف... والأمير عبد الإله[1] بن الأمير علي (جدهما الأمير الحسين الكبير) وكانا قد التحقا بمدرسة التمرين وكانا يقيمان في بيت المدير..." (ص 104). واتسع فيما بعد نطاق الطلاب القادمين من الأردن إلى الكلية العربية، فقدموا إليها من عمان وإربد والنعيمة والسلط وعجلون والعقبة وشطنا وعين جنة.

ولا بد هنا من الالتفات إلى الرؤية التي وردت في التقرير السنوي الذي تلاه مدير الكلية العربية في حفل توزيع الشهادات سنة 1927، فقد جاء فيه:

> *تعتقد الكلية أن التعليم الثانوي يجب أن يحضره في الوقت الحاضر أذكى الطلاب وأنبههم، وأن سياسة الباب المفتوح من التعليم الثانوي سياسة خرقاء كما ثبت لأميركا وأوروبا، أقل ما يقال فيها أنها تخرّج للبلاد طبقة من الشبان من متوسطي المعرفة والمهارة فينحط الإنتاج العقلي ويضعف الابتكار في الأمة وتخلق طبقة في البلاد من أنصاف المتعلمين ليس لهم كبير نفع أو قيمة. هذه هي المبادئ التي تؤمن بها هذه الكلية* (ص 122).

ولا مجال لمناقشة هذه الرؤية هنا وقد شملت التحفظ: "في الوقت الحاضر"، غير أننا نستطيع التأكيد أن الكلية العربية لم تقبل دائماً إلاّ المتفوقين (عادة طالباً واحداً) من كل مدرسة حكومية من مختلف بلدات فلسطين وأحياناً من الأردن.[2]

القسم الثاني من الكتاب هو عن العهد الذي حمل فيه المعهد اسم "الكلية العربية" (1927 – 1948)، والذي شهد تطور الدراسة واتساعها. وقد حفل هذا القسم بمساهمات مهمة للدكتور نقولا زيادة الذي تحدث عن ذكرياته كأستاذ في الكلية، وببحث للدكتور هشام نشابة، وبدراسة وذكريات للأستاذ صادق عودة، وذكريات للعلاّمة الدكتور إحسان عباس عن أيام دراسته في الكلية، وهذه كلها تمتاز بأنها تقرن التاريخ بالحميمية، الأمر الذي يجعل القارئ يعيش الحالة فيتنفس هواءها ويعايش أهلها. ومهما تكن المذكرات ذاتية، كما هي العادة، ومهما يناقش البعض موضوعيتها في بعض الشؤون، إلاّ إنك تشعر بأنها في هذا الكتاب مكتوبة كلها بروح طيبة ترسم الواقع بتفصيلاته الدقيقة، فهي تروي الحكاية الممتعة الحية للقارئ العادي، كما أنها تصلح للدارس الباحث والمؤرخ مرجعاً موثوقاً به. وإن القارئ ليقف بإجلال أمام مذكرات العلاّمة إحسان عباس الذي يقربك بدفء بوحه عن "صدمة" الانتقال من قريته عين غزال إلى القدس، إلى جو ملفع بالغربة والغرابة.[3]

وفي هذا القسم فصل عن مدير الكلية الأستاذ أحمد سامح الخالدي عنوانه: "تاريخ وذكريات"، بقلم الدكتور نقولا زيادة الذي كان على صلة طيبة به، وكان مطلعاً على دوره البارز في مسيرة الكلية.[4]

يلي ذلك جداول الخريجين من سنة 1928 إلى سنة 1948 وأسماء بلداتهم، وهنا تتسع خريطة المدن والقرى التي اغتصبت وشُرّد أهلها لتشمل أيضاً: عكا والعباسية وإجزم والرأس الأحمر ودير القاسي وصفورية والمجدل ولوبية والفالوجة وترشيحا وقومية وكرتيّا والمسميّة وعلَما الخيط وعين غزال والطيرة ومسكة والطنطورة وزرنوقة.

أمّا **القسم الثالث** فيحمل العنوان: "شخصيات مختارة من خريجي دار المعلمين والكلية العربية"، ويشتمل على سِيَر مئة وثمانٍ من الشخصيات في أكثر من مئة وخمسين صفحة.

يقول الدكتور محمد يوسف نجم في تقديمه لهذا القسم: "اخترنا نخبة من خريجي دار المعلمين والكلية العربية وتحدثنا عنها بشيء من التفصيل، حسب ما وصلنا منها أو عنها من معلومات، لكي نعطي نموذجاً واضحاً لما قدمه الخريجون، بوجه عام، لوطنهم الصغير ولوطنهم الكبير من خدمات، في التعليم الأدنى والأعلى وفي سائر الوظائف الحكومية والأنشطة الأهلية." وممّا لا شك فيه أن عملية إعداد هذا القسم كانت عسيرة، فقد انتشر الخريجون في العديد من أقطار العالم ولم يكن الاتصال بهم ميسوراً، لذا فإن من أتيح الوصول إليهم إنما هم نموذج، وأنا أعرف عدداً من الشخصيات التي يمكن أن تضاف لما لها من دور في شتى المجالات.

ولا بد هنا من تصحيح لإشارة وردت في شهادة الدكتور زيادة إذ يقول: "بعد نيسان (أبريل) 1948 أقفلت

الكلية العربية أبوابها (على أمل العودة القريبة). وأصاب مبانيها أيام حرب 1948 ما أدى إلى تدميرها" (ص 139). ففي الحقيقة، لم تدمر مباني الكلية العربية وإنما وضعت في عهدة الصليب الأحمر الدولي،[5] لكنها بقدرة قادر وقعت تحت الاحتلال الإسرائيلي.

في صيف سنة 1977 أخذت الدكتور إسحق موسى الحسيني وزوجته أم حاتم لزيارة مباني الكلية، ولم أكن زرتها منذ تخرجي منها في سنة 1947. ولدى وصولنا وقفنا أمام بوابة يرصدها حارس داخل حجيرة باطون في نطاق سور الأسلاك المحيط بالعمارات وما يحيط بها (أكثر من سبعة وأربعين دونماً).

قال الحارس: "إلى أين؟" قلت: "لزيارة المعهد الذي درست فيه في الأربعينيات." قال: "نحن أقمنا هذا البناء قبل بضع سنوات. أقامته الوكالة اليهودية للشباب اليهود القادمين من شتى الأقطار للتعرف والانطباع."

بعد جدل غير قصير سمح لنا بالدخول. حرج الصنوبر على يمين الداخل وشماله ما زال وفياً. واجهة العمارة، صدرها الذي يدعم جناحين، شمالياً وجنوبياً، ما زالت هناك تنظر إلى الغرب. لكن، أين شعار الكلية الذي نحته الفنان جمال بدران: نسر محلِّق يحمل مقلمة، مؤطّر في دائرة؟ في هذه الساحة وتحت هذا الشعار كانت صورة التخرج سنة بعد سنة، أمّا الآن فهناك لافتة جديدة تحمل اسم الوكالة اليهودية – دائرة الشباب.

دخلنا القاعة الكبيرة التي كانت قاعة طعام الطلاب والمعلمين، والتي كان في زاويتها فونوغراف كبير وعلى الجدران لوحات فنية.

ترتمي الذكريات صريعة. انطوى كل شيء. حملنا الصمت إلى حيث كانت المكتبة. كل شيء يصرخ أمامنا معلناً غربتنا. التقت نظراتنا بصمت، عدنا حالاً، أدركنا أننا لا نحتمل متابعة "المشوار". يعجز أي كلام أمام المشهد، وكمن يسير في جنازة عدنا. لم ينطق أحد بكلمة. حتى قول الشاعر أبي تمام (الذي يقول فيه الدكتور إسحق: حبيبي حبيب بن أوس)، ذلك القول الذي هجست به: "لا أنتِ أنتِ ولا الديارُ ديارُ" ظل في خاطر الصمت.

علاوة على الشهادات الواردة في الكتاب أود أن أضيف بعض الملاحظات من تجربتي في الأعوام الدراسية الأربعة التي كنت فيها طالباً[6] في الكلية (1943 – 1947):

● كان منهاج الدراسة في الفرع الأدبي في الصفين الخامس والسادس ثرياً مثرياً يتيح للطالب ثقافة تأسيسية قلما تتاح للطلاب في الأعوام الجامعية الأولى. فقد اتسعت دراسة الفلسفة لتمتد من هيراكليتس عبر سقراط وأفلاطون وأرسطو إلى ديكارت. أمّا الفلسفة الإسلامية فشملت الغزالي "المنقذ من الضلال" والفارابي "آراء أهل المدينة الفاضلة" مع ما يحيط بذلك من خلفية وتيارات.

فتحت هذه الدراسة آفاقاً رحبة للتفكير والنقاش، كمقارنة أفكار أفلاطون في "الجمهورية" بأفكار الفارابي. وقد أثار ديكارت أبعاداً جديدة للبحث والرؤية. كما أتاحت دراسة "علم المنطق"، الذي خُص بدرس مستقل، أبعاداً لمنهجية التفكير. وكان الدكتور جورج حوراني يدرّس هذه الموضوعات باللغة الإنكليزية، فقد كان "يتكلم العربية ويقرؤها لكنه لا يكتبها"،[7] كما كان يعلّم أحياناً تاريخ اليونان والرومان واللغة اللاتينية.

أمّا الأدب الإنكليزي فشمل، علاوة على دراسة كثير من روايات شكسبير، تخصصاً بالمدرسة الكلاسيكية: بوب ودرايدن، وبالمدرسة الرومانسية: كولردج وبايرون وشلي وكيتس.

واشتملت الدراسة أيضاً على "علم النفس"، وهو باب مهم اتسعت به الثقافة والرؤية.

أمّا اللغة اللاتينية فكان علينا أن نمضي في دراستها هنا عامين دراسيين آخرين، فنقرأ "كتاباً" من ملحمة الشاعر اللاتيني فرجيل، "الإنياذه"، وفصولاً من شيشرون وقيصر. وكنا نود لو أُنفق هذا الجهد في دراسة لغة حية.

● في الصف السادس الثانوي انضم إلى هيئة التدريس الدكتور محمود الغول ليعلّم مادة "النقد الأدبي"، التي أحاطت بالنقد القديم في الأدب العربي وامتدت إلى نظريات النقد الأدبي الحديث.

● أمّا الاهتمام بالتراث الثقافي الفلسطيني فبثّه في الطلاب بشكل خاص مدير الكلية الأستاذ أحمد سامح الخالدي والدكتور إسحق موسى الحسيني. فقد نشر الأستاذ الخالدي "أهل العلم بين مصر وفلسطين" (1946) و"رحلات في ديار الشام" (1946)، كما نشر كتاب "مثير الغرام بفضائل القدس والشام" (1945)، وحرّضنا على إحياء هذا التراث في أحاديثه معنا، نحن طلاب الصف السادس، خلال "مشاوير" مسائية في حدائق الكلية.

وأمّا اهتمام الدكتور إسحق فقد ظهر في الجهد الذي بذله مع إخوانه لإقامة "معرض الكتاب الفلسطيني" في قاعة النادي الأورثوذكسي في القدس سنة 1946، وفي مشاركته في النقاش على صفحات مجلة "الأديب" عن الأدب الفلسطيني (1945). كما اقترح علينا أن نكتب أبحاثاً عن أعلام تراث الأدب الفلسطيني، وبتوجيه منه كتبتُ

آنذاك بحثاً عن الشاعر أبي إسحق الغزي (1049 – 1130م).

● أدخل الدكتور الحسيني إلى برنامج اللغة العربية في الصف الثالث دراسة آثار معاصرة (آنذاك)، فكنا نقرأ "زهرة العمر" لتوفيق الحكيم، و"على هامش السيرة" لطه حسين، و"زنوبيا" لمحمد فريد أبو حديد، بينما توقف هذا المنهاج في امتحان شهادة التعليم العالي (المتريكيوليشن/المترك) عند مطلع النهضة، لدى شوقي وحافظ.

● يوم الجمعة، وهو يوم عطلة، كان الطلاب يدرسون الدين وبعده الرسم؛ فكان الأستاذ علي حسن عودة يعلم مادة الدين الإسلامي، بينما كان الأستاذ حبيب الخوري يعلم الدين المسيحي، وكانت علامة هذه المادة تسجل في شهادة الطالب لكنها لا تجُمع مع علامات المواد الأُخرى. أمّا الرسم فكان يعلمه الفنان جمال بدران، وأضاف إليه تجليد الكتب فيما بعد. وقد أقيم سنة 1946 معرض لرسوم الطلاب.

● كانت تقام في الكلية "مباراة شعرية سنوية" يتبارى فيها من يشاء من الطلاب في كتابة الشعر، وكان من موضوعاتها ترجمة قصيدة من الأدب الإنكليزي شعراً. وقد حزتُ الجائزة الأولى في السنوات الثلاث 1945 و1946 و1947، وكانت كتباً ودواوين شعر.

● بعد إعفاء "ضابط الكلية" فخري الخطيب من عمله[8] وتعيين الأستاذ عبد الرحمن بشناق نائباً للمدير، بدأ يشيع جو من الحرية وأتيحت أوضاع جديدة فيها متسع للنشاط الثقافي.

● بمبادرة ذاتية قام الدكتور جورج حوراني بمساهمة طيبة في المجال الثقافي. فقد كان يُحضر أسطوانات موسيقى كلاسيكية ويعقد حلقة حول الفونوغراف الجاثم في إحدى زوايا قاعة الطعام، يشترك فيها من يشاء. وكان يستهل الدرس بشرح عن الموسيقيّ المؤلِّف ونوع التأليف الموسيقي والمصطلحات الفنية، ثم يكون الاستماع إلى الموسيقى بحد ذاتها، وبعده تأتي الملاحظات. وهذا كله بهدف توسيع الآفاق الثقافية. وفي أيام أُخرى كان الدكتور حوراني يحضر معه نسخاً من كتب (بالإنكليزية) فيعرّف الطلاب بالمؤلفين وبالكتب، ويشجع على قراءتها. وكان ذلك يقتضي منه حمل كمية من الكتب عبر مسافة طويلة إذ لم يكن لدى المعلمين آنذاك سيارات يأتون بها!

● سنة 1946 أقيمت جمعية تعاونية من الطلاب أدارت مقصفاً صغيراً في أحد الأكواخ، كانت تباع فيه المرطبات والكعك، كما وُضع فيه لوازم مقتضيات لعب كرة الطاولة ومذياع. وكان الهدف من ذلك التركيز على مبدأ التدرب على إنشاء الجمعيات التعاونية.

● اتسع مدى رحلات المشي: إلى دير مار سابا وأريحا وإلى قرى في لواء رام الله. وقد نشط في تنظيم الرحلات والمشاركة فيها الدكتور نقولا زيادة الذي كان يقول: تحبون بلادكم بقدر ما تقرأونها بأرجلكم، والدكتور عبد الحافظ كمال الذي كان يعلم مادة علم النفس.

● طلب إليَّ الأستاذ الخالدي والأستاذ عبد الرحمن بشناق سنة 1946 العمل على إعادة إصدار مجلة الكلية العربية، فاتصلت بالأساتذة والطلاب طالباً منهم المشاركة في الكتابة، وأعد الأستاذ جمال بدران رسماً للغلاف صُوِّر بالزنكوغراف، وكانت الأمور المادية كلها مهيّأة. وقد كتب الدكتور إسحق الحسيني مقالاً طريفاً عن المطالعة، كما شارك عدد من الطلاب في الكتابة، إلا إن عوائق أُخرى حالت دون اكتمال المشروع.

اليوم، في الذكرى السنوية الستين للنكبة، وبعد قراءة الكتاب، يثور السؤال عن الأوضاع العلمية والثقافية التي أتيحت للشعب الفلسطيني (لأن شؤونه منذ الاحتلال العثماني والانتداب البريطاني بعده لم تكن بيده)، وعن مدى التقدم العلمي والثقافي الذي أحرزه في الصراع ضد الصهيونية التي كانت شرعت في بناء المؤسسات حتى قبل وعد بلفور الذي كان الانتداب تحقيقاً له.

يقول موقع صهيوني على الإنترنت: "منذ البداية رأى اليهود في جهاز التعليم جزءاً من تحقيق الوطن القومي الذي وُعدوا به في وعد بلفور سنة 1917، ولذلك حافظوا على استقلاله الذاتي وعارضوا كل تدخل لحكومة الانتداب البريطاني في أرض إسرائيل."[9]

وكانت المؤسسات الصهيونية أعدت لذلك قبل مجيء الانتداب. فقد نشأت فكرة إنشاء "التخنيون" (معهد العلوم التطبيقية في حيفا) سنة 1907، وشُرِع في البناء سنة 1913، وافتُتح رسمياً سنة 1924 بحضور أينشتاين. أمّا الجامعة العبرية في القدس فقد اتُخذ القرار بإنشائها في المؤتمر الصهيوني الحادي عشر سنة 1913، ووُضع حجر الأساس سنة 1918 ودُشنت في احتفال حضره بلفور سنة 1925. وشمل التعليم العبري كل الأطفال اليهود الذين هم في سن التعليم، وكان مستقلاً يحظى بالميزانيات من حكومة الانتداب ومن المؤسسات الصهيونية.

أمّا الأطفال الفلسطينيون العرب فلم تزد نسبة الذين التحقوا منهم بمدارس على 8٪ حتى سنة 1917، ووصلت إلى نحو الثلث سنة 1947.[10] فالتعليم الرسمي العربي لم يكن له مدارس رسمية ثانوية كاملة تعد لامتحان

الاجتياز إلى المترك إلاّ بضع مدارس (كليات) في القدس ورام الله. وكانت المدارس في القرى تصل إلى الصف السابع في أحسن الأحوال، وفي المدن الكبيرة إلى الصف الثاني الثانوي (تسعة أعوام دراسية، أي عامان قبل المترك). وكان بعض المقتدرين مادياً في الجليل يرسلون أبناءهم إلى لبنان للدراسة وقد تكون النفقات هناك أقل من القدس، ولذلك كانت الكلية العربية ثم الرشيدية تتيحان للمتفوقين غير القادرين مادياً أن يُقبلوا ويعفوا من الرسوم إمّا مكافأة على التحصيل العلمي وإمّا اعتباراً لوضعهم المادي.

ولم يتعسف الانتداب في التعامل مع المعلمين اليهود الذين كانوا يربّون على العصبية الصهيونية، بل كان هناك انسجام بين الواعد والموعود. أمّا المعلمون العرب فقد أدركوا ما يحاك لهم ولوطنهم فاحتجوا. ويحدثنا الكتاب كيف استقال خليل السكاكيني، المدير الثاني للكلية، احتجاجاً على تعيين هربرت صموئيل الصهيوني مندوباً سامياً (ص 18). أمّا مدير دار المعلمين الثالث، خليل طوطح، فقد استُبعد مع ثلاثة من معلمي الدار: درويش المقدادي وجلال زريق وجورج معمر، بتهمة تحريض الطلاب على الإضراب في 2 تشرين الثاني/نوفمبر 1925، استنكاراً لقدوم اللورد بلفور لحضور تدشين الجامعة العبرية في القدس. وقد أصدرت إدارة المعارف البلاغ الرسمي التالي: "بناء على العصيان الذي نشأ في دار المعلمين والمدرسة الثانوية المركزية في القدس حيث رفض الطلبة الدخول إلى صفوفهم وإطاعة أوامر المدير، فقد قررت الحكومة إغلاق هذه المدرسة اعتباراً من هذا اليوم 23 آذار (مارس) 1925 وإرسال الطلبة إلى بيوتهم إلى إعلان آخر" (ص 93).

وظل سوط الإرهاب مسلطاً على الطلاب والمعلمين. يقول الأستاذ صادق عودة في شهادته في هذا الكتاب: "وفي العام الدراسي 1940/1941، كان عدد أبناء صفنا (الثالث الثانوي) اثنين وعشرين طالباً، فُصل اثنان منهم في نهاية العام: الأول بسبب تقصير في الدراسة، والثاني لأسباب سياسية أمنية تتعلق بنشاط ضد السلطات البريطانية" (ص 165). وأذكر أن أربعة من معلمي المدرسة الثانوية في الناصرة – وكلهم من خريجي الكلية العربية – نُفوا سنة 1942، بعضهم إلى الخليل والبعض الآخر إلى نابلس عقاباً على نشاطهم السياسي.[11] هؤلاء المعلمون أدخلوا روحاً جديدة إلى المدرسة: أقاموا منصة خطابية للطلاب مرة في الشهر، يقدم فيها من يشاء حديثاً في موضوع يختاره، فيلقيه بشكل لائق أمام زملائه ثم يجرى نقاش في الموضوع. كما اهتم هؤلاء المعلمون بتعليم أناشيد وطنية ينشدها الطلاب في الصباح وفي الرحلات. أمّا الأستاذ رشدي شاهين معلّم مادة اللغة العربية، فكان يتجاوز المنهاج المقرر ويعلم قصائد لإبراهيم طوقان: "الشهيد" و"الفدائي"، وقصيدة لبشارة الخوري: "جهاد فلسطين"، و"نكبة دمشق" لشوقي، وكان يجعل الطلاب يحفظونها غيباً.

وهكذا نرى الشقة الواسعة في أحوال التعليم والثقافة بين الشعبين، وفي سلوك السلطة الانتدابية القامع للروح الوطنية العربية، سواء في البرامج المقررة أو في التعامل مع السلوك الوطني.

قبل دار المعلمين التي أنشئت في القدس سنة 1918 عرفت بلادنا دار المعلمين (السمنار) في الناصرة التي أنشأتها "الجمعية الإمبراطورية الأورثوذكسية في البلاد المقدسة"، وهي جمعية روسية شرعت في إنشاء مدارس في الجليل (المجيدل سنة 1882، الرامة وكفر ياسيف سنة 1883، الشجرة سنة 1884)، لكنها أدركت أنها لا تستطيع المضي في المهمة من دون كادر معلمين مؤهلين فأنشأت تلك الدار في الناصرة (1886 – 1914). كانت الدراسة في الدار في البداية أربعة أعوام ثم أصبحت ستة أعوام، أمّا الطلاب فكانوا من المتفوقين في شبكة المدارس التي بلغ عددها 114 مدرسة وصلت إلى بيروت ودمشق وطرابلس وحمص (قبل أن يمزق اتفاق سايكس – بيكو جسد بلاد الشام). وقد حظي المتفوقون في الدار ببعثات إلى روسيا، ومنهم ميخائيل نعيمة.[12]

كما طُوّرت المدرسة الروسية التي أقيمت في بيت جالا سنة 1885 فأصبحت دار معلمات (سمنار) سنة 1890. وقد قام خريجو وخريجات هاتين الدارين بدور مهم في التعليم في عهد الانتداب. يقول الدكتور نقولا زيادة: "لمّا عُيّنت (معلماً) في عكا سنة 1925 كان زملائي جبرائيل خوري من خريجي السمنار الروسي في الناصرة الذي كان يعد المعلمين لمدارسه، يوسف حنا كذلك الأمر. انضم إلينا فيما بعد ناصر عيسى أيضاً وكان من خريجي السمنار. وكان هناك في ترشيحا زميلي جبران بولس وفي عكا زميلي يوسف خليل كلاهما لم ينهيا السمنار. كانت مدة الدراسة ست سنوات لكنهما درسا أربع سنوات فقط ثم جاءت الحرب العالمية الأولى (1914 – 1918) وأقفل السمنار."[13]

ونعجب مما يمكن أن نسميه "القدر الفلسطيني"، فقد كان البرنامج الجديد لدار المعلمين في الناصرة ودار المعلمات في بيت جالا، الذي أقر في حزيران/يونيو 1914، يمهد لأن تصبحا كليتين جامعيتين،[14] إلاّ إن الحرب

العالمية التي كانت بالمرصاد في تلك السنة أطاحت كل شيء.

ولنقرأ ما يقوله نقولا زيادة عما رُسم للكلية العربية: "كانت الخطط قد أعدت، منذ بدء السنة 1946، لتوسيع الكلية العربية وترفيعها... ومن الجهة الثانية، وهي الأهم، تمكينها من التقدم في مسيرتها لتصبح (كلية جامعية)، على نحو العشرات من هذه الكليات التي كانت منتشرة في بريطانيا وفي أنحاء الإمبراطورية" (ص 138). ■

(*) كاتب من فلسطيني 48.

المصادر

(1) أصبح فيما بعد وصياً على عرش العراق، وقد ورد اسمه خطأً (عبد الله) في صفحة 155 بعد أن كان صواباً في صفحة 104. على العموم سلم الكتاب من الأخطاء المطبعية، لكن بعضها يحتاج إلى تصحيح. مثلاً: ورد في صفحة 294 أن توفيق نقولا الخوري هو من غزة وأنه تقدم لامتحان الإنترميديت سنة 1947، بينما جاء في صفحة 288 أنه من الناصرة (وهو الصحيح)، ولا يمكن أن يكون تقدم لامتحان الإنترميديت سنة 1947 (لأنها السنة التي تقدمت أنا فيها لذلك الامتحان، وهو كان في الصف الذي يلي صفي).

(2) يقول الدكتور هشام نشابة في بحثه المنشور في هذا الكتاب، ص 154: "اكتسبت الكلية العربية شهرة ومكانة في فلسطين وخارجها، واعتبرها المربّون العرب والأجانب نموذجية وذات مستوى علمي رفيع، فاجتذبت إليها المتميزين من أبناء فلسطين وأبناء الطبقة الموسرة..." لكن الكلية العربية لم تفتح أبوابها لمن يشاء، وإنما كانت تختار المتميزين، ولم يكن لليسر أو الثروة صلة بالقبول أو الانتساب.

(3) حاولت سنة 1996 أن أستضيفه وآخذه لزيارة آثار عين غزال، فتنهد متحسراً وقال: لا أقدر أن أتحمل الصاعقة.

(4) أسجل هنا فضلاً للأستاذ الخالدي عليّ. فبعد أن أنهيت الصف الرابع الثانوي واجتزت امتحان (المترك) توجهت إلى شركة تكرير البترول في حيفا وقُبلت للعمل فيها. لكن الأستاذ الخالدي بعث برسالة إلى والدي يطلب إليه فيها أن يقنعني بالعودة إلى الكلية لمتابعة الدراسة في الصفين الخامس والسادس. عدت بعد بدء العام الدراسي، وبذلك تغيّر المصير.

(5) أنظر: http://www.palestineinfo.info/arabic/beet_maqdes/maqdes121.htm

فهناك إشارة إلى وجود لجنة "مكلفة على الصعيد الوطني المشاركة في استعادة أرض الكلية." كذلك راجع بشأن المساعي لاستعادة الكلية والأرض التي تقوم عليها: http://www.arabcollege.net

ففي هذا الموقع كلمة للمرحوم الدكتور حيدر عبد الشافي (تخرج من الكلية سنة 1936) يقول في آخرها: "أرى أن يثير الجانب الفلسطيني مسألة استرجاع الولاية على الكلية في إطار المطالبة بالحق الفلسطيني في القدس. إنني أناشد السلطة الفلسطينية والرئيس عرفات بشكل خاص إيلاء هذا الموضوع الاهتمام الذي يستحقه والله ولي التوفيق." وفي هذا الموقع أيضاً مقال للأستاذ وليد راغب الخالدي، وإشارة إلى لجنة بإشراف البروفسور وليد أحمد الخالدي لدراسة الوضع القانوني للكلية ومنطقتها.

(6) في الكتاب الثاني من سيرتي "مَهْر البومة" (حيفا، 2004) ما بين صفحة 13 وصفحة 70 عدد من الفصول عن عهد دراستي في الكلية العربية هي: "إلى القدس"؛ "مذكرات نحلة"؛ "أشباح السّحَر"؛ "هكذا تدربوا"؛ "إنذار"؛ "من المفكرة"؛ "النبأ".

(7) ولد الدكتور حوراني في مانشستر لأبوين لبنانيين. درس الكلاسيكيات في جامعة أكسفورد وتابع دراسته في جامعة برنستون.

(8) راجع ما يقوله نقولا زيادة (ص 131) وما يقوله صادق عودة (ص 169).

(9) http://tnuathaavoda.info

(10) Sami Khalil Mar'i, *Arab Education in Israel* (Syracuse, N.Y.: Syracuse University Press, 1978), p. 14.

(11) هم: رشدي شاهين وفؤاد خوري وجمال سكران وسمير عزيز.

(12) راجع: حنّا أبو حنّا، "طلائع النهضة في فلسطين (خريجو المدارس الروسية) 1862 – 1914" (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 2005).

(13) www.Arabs 48.com نقلاً عن صحيفة "الحياة".

(14) Derek Hopwood, *Russian Presence in Syria & Palestine (1843-1914)* (Oxford: Clarendon Press, 1969), p. 156.

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar_index.aspx